The concept of Kidya in the Abbasid era (132-656AH / 750-1258AD)

Asist. Prof. Enas Imad AbdulMonam, PHD
Almustansiriyah University, college of Literature-
Department of History
Email: emad.enas@uomustansiriyah.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i141.3704

Abstract:

The phenomenon of kidiyah emerged in the era of the Umayyads, but it became stronger and intensified in the Abbasid eras, with the development, complexity and intertwining of social life in various aspects, and the replacement of money with the supreme place in human values, The class disparity was the main reason behind the people's scramble to collect money by various means, and they did not shy away from the evil or the forbidden, so there were many ways of deception and fraud to reach the money that contributed to the emergence of the literature of the kidya, as the destitute groups sought for their food, and collected money by every means, so begging was one of the these means.

This research aims to study the phenomenon of kidya, which in the sense of asking and asking for giving, is a natural phenomenon in all societies.

Keywords: Kidya, poverty, Abbasid era

مفهوم الكدية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م)

أ.م.د. ايناس عماد عبد المنعم

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب/ قسم التاريخ

(مُلَخَّصُ البَحث)

برزت ظاهرة الكدية في عصر بني أمية(٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م)، لكنها قويت واشتدت في العصور العباسية، مع تطور الحياة الاجتماعية وتعقدها وتشابكها في مختلف النواحي، وإحلال المال المحل الأسمى في القيم الإنسانية، وكان التفاوت الطبقي السبب الرئيس وراء تدافع الناس لجمع المال بشتى الوسائل، ولم يتورعوا عن خبيث أو حرام فكثرت سبل المخادعة والاحتيال للتوصل إلى المال الذي أسهم في ظهور أدب الكدية، إذ عمدت الفئات المعدمة إلى البحث عن طعامها، وتحصيل المال بكل وسيلة فكان الاستجداء احدى هذه الوسائل. ويهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الكدية التي تعد بمعنى السؤال وطلب العطاء، ظاهرة طبيعية في كلّ المجتمعات، تدفع إليها الفاقة، لا يختص بها مجتمع دون آخر، ولا تقتصر على المجتمع فحسب، وهي ظاهرة مُغرقة في القدم، ولا تزال موجودة إلى الآن.

الكلمات المفتاحية: كدية، الفقر، العصر العباسي.

المقدمة:

برزت ظاهرة الكدية في عصر بني أمية (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م)، لكنها قويت واشتدت في العصور العباسية، مع تطور الحياة الاجتماعية وتعقدها وتشابكها في مختلف النواحي، وإحلال المال المحل الاسمى في القيم الإنسانية، وكان التفاوت الطبقي السبب الرئيس وراء تدافع الناس لجمع المال بشتى الوسائل، ولم يتورعوا عن خبيث أو حرام فكثرت سبل المخادعة والاحتيال للتوصل إلى المال الذي اسهم في ظهور أدب الكدية، إذ عمدت الفئات المعدمة إلى البحث عن طعامها، وتحصيل المال بكل وسيلة فكان الاستجداء احدى هذه الوسائل.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الكدية التي تعد بمعنى السؤال وطلب العطاء، ظاهرة طبيعية في كلّ المجتمعات، تدفع إليها الفاقة، لا يختص بها مجتمع دون آخر، ولا تقتصر على المجتمع فحسب، وهي ظاهرة مُغرقة في القدم، ولا تزال موجودة إلى الآن.

أن الفقر هو عدم القدرة على الحفاظ على المستوى الأدنى من المعيشة، وهو الدافع إلى طلب العطاء، حتى تحول الاستجداء والكدية، إلى حرفة امتهنها البعض، واتخذوها وسيلة للكسب، وتحقيق الثراء، ومثلت نوعين من فئات المجتمع الاول اتّخذه السائلون وسيلة للاستجداء، وسبيلاً للتأثير في قلوب الأغنياء، يستدرون به عطفهم ومارسوها في الطرقات والشوارع العامة والاخرى اتخذها وسيلة للكسب لدى الحكام والوزراء والامراء معتمدا على طريقة القاءه للاستمناح في صورته الأولية.

وقد ذاع أمر المكدين وانتشرت أخبارهم، وغدا الانتساب إليهم سببًا في النجاة من قطّاع الطرق كما يقول الشاعر في البيت الأخير، فمن أحب التخلّص من المجرمين واللصوص فليقُل إنه من المكدين فينال عفوهم ولا يتعرض لسلب ماله. وتعددت المضامين، والمعاني المختلفة، في ظاهرة الاستجداء، فلا يختصّ بموضوع واحد، ولا يقتصر على معنى بعينه، بل غالبًا ما يضمّ النموذج الواحد معان عدة، ومضامين مختلفة، من مدح وهجاء، ورثاء ودعاء، وموعظة وشكوى من الفقر، وسوء الحال، واتخذوا هؤلاء شتى انواع الطرق والفنون والحيل من اجل كسب المال.

المبحث الأول: الكدية في اللغة:

وردت لفظة الكدية في معاجم اللغة بمعان عديدة مختلفة، ذكر ابن السكيت " هو الذي لا يثوب له مال ولا ينمي" (ابن السكيت، ١٩٩٨، ص١٦) . كما ذكر الانباري معنى اكدى "قد قطع العطاء وايس من خيره"، بمعنى انه امسك عن العطية وقطعها وقال: (الانباري،١٩٩٢،ج١،ص٣٨٥).

فتى الفتيان ما بلغوا مداه ولا يكدى إذا بلغت كداها

وقال الازهري أكدى اي بمعنى "الح في المسألة وانشد:(الازهري،٢٠٠١،ج١٠،ص١٧٧)

تضن فنعفيها ان الدار ساعفت فلا نحن نكديها ولا هي تبدل

وذكر القزويني ان معنى اكدى: "يقال للرجل اذا اعطى يسيراً ثم قطع" (ابن فارس، د.ت، ج٥، ص١٦٦)، وذكر ابن سيده اكدى بمعنى الجحد: "وهو قلة الخير وقيل هو القلة من كل شي وخص به بعضهم قلة المال يقال اكدى الرجل كأجحد وقيل المكدي الذي لا يثوب له مال ولا ينمي" ابن سيده،ج٣، ص٤٥٢)،وتأتي بمعنى كدى واكدى بمعنى" بخل"(اليمني، ١٩٩٩، ج٩، ص٥٧٨٥).

وذكر الزمخشري اكدى الرجل: اخفق ولم يظفر بحاجته، وفلان مكد: لا ينمي ماله، وان فلانا قد بلغ الناس كديته وكداه اذا امسك بعد الاعطاء".(الزمخشري، ١٩٩٨، ج٢، ص١٢٧).

وقد أفاض ابن منظور في شرح معاني الكلمة، فجاءت عنده بمعان متقاربة من الاستجداء ويقال: أكدى، أي ألح في المسألة، يقال: لا يكديك سؤالي، أي لا يلح عليك، وقوله: فلا نحن نكديها، أي فلا نحن نلح عليها، قالت الخنساء:

فتى الفتيان ما بلغوا مداه ولا يكدى إذا بلغت كداها.

أي لا يقطع عطاءه ولا يمسك عنه إذا قطع غيره وأمسك. وأكدى الرجل: قل خيره، وقيل المكدي من الرجال الذي لا يثوب له مال ولا ينمي من خلال المعنى اللغوي السابق للكدية في لسان العرب، يتضح أن للكلمة معاني كثيرة ومختلفة، بيد أن بينها عاملا مشتركا، هو المنع متمثلة بقلة عطاء الرجل، والبخل والالحاح في طل المسالة.(ابن منظور،١٤١٤هـ،ج١٥،ص٢١٦)، اما الزبيدي فقد جعلها الكدية "حرفة السائل الملح" (الزبيدي، ج٣٩، ص٣٨) .

ويبدو ان اصل اكدى لفظة معربة "لمن يكثر السؤال: مكد واصله مجد لاشتقاقه من الاجتداء وكأن الاصل في المجدي"(البصري، ١٩٩٨، ص١٨٢)، وقد تبع هذا الخفاجي حيث قال:"كدا يكدي ليست بعربية وانما يقال جدا يجدي قال الشاعر (الخفاجي، ١٩٩٦، ص٥٤٦-٥٤٧) :

يا ظالماً متعدي من المجدي يجدي

ومن الالفاظ الاخرى التي تطلق على صاحب الكدية الشحاذ وهو من "الشحذ" بمعنى شحذت السيف اذا بلغت في احداده، فكان الشحاذ الملح في المسالة والمبالغ في طلب الصدقة"(البصري، ص١٩٦)، ويعرف ايضاً "الشحات" وهو "الالحاح في المسالة ومنه يقال للمكدي شحات " (البصري، ص٥٨١).

وقيل هو الذي يسال الناس وعمله الشحاذة(ابن قيم الجوزية، ١٤٢٨هـ، ج١، ص٢٤٥)، وقيل هو الرجل الذي يأخذ من الناس الشي اليسير كما يشحذ المسن بالحديد" (الحميرى،ج٦، ص٣٣٩٣)، وقيل الشحاذ كلمة معربة اصلها فارسي بمعنى " السائل " وقد تلاعبت باستعماله العرب (الزبيدي، ج١٧، ص٢٠٢)، وهو الذي يتحصل له المال بالسؤال والطلب (ابن عابدين،١٩٩٢، ج٤، ص٣٢٣).

وقيل ان الشحاذ هو" الفقير في المال الكثير" (النفراوي، ١٩٩٥، ج٢، ص٢٢٥)، ويمارس عمله الشحاذة في الطرقات والاسواق(السبكي، ١٩٨٦،ص١١٣)، ومن الالفاظ التي وردت في الكدية "الكداش" وهو المكدي بلغة اهل العراق يقال :"كدش لعياله يكدش كدشاً: جمع وكسب واحتال" والاسم الكداشة: ما كدش منه شيئا : اي ما اصاب وما اخذ"(ابن سيده، ج٦، ص٦٧٧).

ويقال رجل كداش: "كساب"(ابن منظور، ١٤١٤هـ، ج٦، ص٣٣٩)، ومن الالفاظ التي ذكرتها المعاجم اللغوية بمعنى الكدية "الراضِع" وهو: "الشَّحَّاذ، لأنّه يَرْضَعُ الناسَ بسؤالِه".(الزمخشري،١٩٩٨، ج١، ٣٥٩).

المبحث الثاني: اصناف المكدين

بينت المصادر التاريخية اصناف المكدين وذكرت وسائلهم وحيلهم في الطلب والسؤال ويمكن تقسيم الى قسمين:

اولا: فئة الذين يمارسون حرفة الكدية في الطرقات والساحات، ويقومون بالتوسل والشحذ والضرع والاسترحام (ابو حيان التوحيدي، ١٩٩٢، ص٤٩٥) ومنهم:

١- المكي:

"الذي يأتيك وعليه سراويل واسع دبيقيّ أو نرسي وفيه تكة أرمنية قد شدّها إلى عنقه فيأتي المسجد فيقول: أنا من مدينة مصر ابن فلان التاجر وجهّني أبي إلى مرو في تجارة ومعي متاع بعشرة آلاف درهم فقطع عليّ الطريق وتركت على هذه الحال ولست أحسن صناعة ولا معي بضاعة وأنا ابن نعمة وقد بقيت ابن حاجة". (البيهقي، د.ت. ص٢٤٧).

٢- السحري:

"الذي يبكر إلى المساجد من قبل أن يؤذن المؤذن"(البيهقي،د.ت، ص٢٤٧).

٣- الشجوي:

الذي كان يؤثر في يده اليمنى ورجليه حتى يري الناس أنه كان مقيداً مغلولاً ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهّمك أنه من الخلديّة وقد حبس في المطبق خمسين سنة"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٤-الذرارحي:

الذي يأخذ الذراريح فيشدها في موضع من جسده من أول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتيقظ فيخرج بالغداة عرياناً وقد تنفّط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر ويصبّ على ظهره قليل رماد فيوهم الناس أنه محترق. "(البيهقي،د.ت، ص٢٤٧).

٥-الحاجور:

وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرئة فيدخل الحلقوم في دبره ويشرّح الرئة على فخذه تشريحاً رقيقاً ويذرّ عليه دم الأخوين[١]"(البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢٤٧).

٦-الخاقاني:

الذي يحتال في وجهه حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك ويسوده بالصبر والمداد ويوهّمك أنه ورم. "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٧-السّكوت:

الذي يوهمك أنه لا يحسن أن يتكلم. (البيهقي، د.ت،ص٢٤٧).

٨-الكان:

وهو الذي يواضع القاص من أول الليل على أنه يعطيه النصف أو الثلث فيتركه حتى إذا فرغ من الأخذ لنفسه اندفع هو فتكلم. "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٩-المفلفل:

وهما "الرفيقان يترافقان فإذا دخلا مدينة قصدا أنبل مسجد فيها فيقوم أحدهما في أول الصف فإذا سلم الإمام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف: يا فلان قل لهم. فيقول الآخر: قل لهم أنت أنا أيش. فيقول: قل ويحك ولا تستح. فلا يزالان كذلك وقد علّقا قلوب الناس ينتظرون ما يكون منهما، فإذا علما أنهما قد علقا القلوب تكلما بحوائجهما وقالا: نحن شريكان وكان معنا أحمال بزّ كنا حملناها من فسطاط مصر نريد العراق فقطع علينا وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن أن نسأل وليست هذه صناعتنا. فيوهمان الناس أنهما قد ماتا من الحياء"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٠-زكيم الحبشة:

الذي يأتيك وعليه درّاعة صوف مضرّبة مشقوقة من خلف وقدّام وعليه خفّ ثغري بلا سراويل يتشبه بالغزاة "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

---

[١] دم الاخوين: وهو دم الغزال وهو عصارة عرق الارطى وهي حمرة ينظر: الازهري، تهذيب اللغة، ج١٤، ص٢٦٣؛ ابن منظور لسان العرب، ج١، ص٩٠.

١١-زكيم المرحومة:

المكافيف يجتمعون خمسة وستة وأقل وأكثر وقائدهم يبصر أدنى شيء عينه مثل الخفاش يقال له الاسطيل فهو يدعو وهم يؤمنون"(البيهقي،د.ت، ص٢٤٧).

١٢-الكاغانيّ:

هو "اسم الذي يتجنّن أو يتفالج فالج الرّعدة والارتعاش، فإنّه يحكي من صرع الشّيطان، ومن الإزباد، ومن النّفضة، ما ليس يصدر عنهما. وربّما جمعهما في نقاب واحد، فأراك الله تعالى منه مجنونا مفلوجا يجمع الحركتين جميعا بما لا يجيء من طباع المجنون"(الجاحظ،١٤٢٤، ج٦، ص٥٦٨)، وهو الذي يتجنن ويتصارع ويزبد حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته" (البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٣-القرسيّ:

وهو الذي يعصب ساقيه أو ذراعيه عصباً شديداً ويبيت على ذلك ليلة فإذا تورم واحتقن فيه الدم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين وقطر عليه من سمن البقر وأطبق عليه خرقة ثم كشف بعضه فلا يشك من رآه أنه آكلة نعوذ بالله منها. "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٤-المشعب:

الذي يحتال للصبي حين يولد بأن يزمنه أو يعميه ليسأل به الناس، وربما جاءت أمه أو يجيء أبوه فيتولى ذلك فإما أن يكسبا به أو يكرباه فإن كان عندهما ثقة وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً "(البيهقي، د.ت ، ص٢٤٧).

١٥-الفيلور:

وهو الذي يحتال لخصيتيه حتى يريك أنه آدرٌ وربما أراك أن بهما شرطاً أو جرحاً، وربما أراك ذلك في دبره، وتفعل المرأة ذلك بفرجها"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٦-الكاخان:

الغلام المكدي إذا واجر وعليه مسحةٌ من جمال وعمل العملين جميعاً"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٧-العواء:

الذي يسأل بين المغرب والعشاء ويطرّب في صوته "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٨-الاسطيل:

وهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه أعمى وإن شاء أراك أنه ممن نزل في عينه الماء وإن شاء أراك أنه لا يبصر. "(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

١٩-المزيديّ:

وهو الذي يدور ومعه دريهمات يقول: هذه دريهمات قد جمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها ورحمكم الله"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٢٠-المستعرض:

الذي يعارضك وهو ذو هيأة في ثياب صالحة يريك أنه يستحيي من المسألة ويخاف أن يراه معرفة فيعرض لك اعتراضاً ويكلمك خفتاً"(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٢١-المطيّن:

وهو الذي يطيّن نفسه من قرنه إلى قدمه ويأخذ البلاذر يريك أنه يأكل البلاذر" (البيهقي، د.ت، ص٢٤٧).

٢٢- المخطراني:

وهو الذي يأتيك في زي ناسك ويريك ان بابك قد قور لسانه من اصله لأنه كان مؤذنا هناك، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لسانا البتة. ولسانه في الحقيقة كلسان الثور، وأنا أحد من خدع بذلك، ولا بد للمخطراني أن يكون معه واحد يعبّر عنه، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصتّه.(الجاحظ،١٤١٩، ص٧٩).

٢٣- البانوان:

وهو الذي يقف على باب ويسيل الغلق ويقول بانوا وتفسير ذلك بالعربية يا مولاي (الجاحظ، ١٤١٩، ص٧٩).

ثانياً: فئة اصحاب النثر والشعر الذين يتخذون من قصور الخلفاء والوزراء غايتهم في الكدية:

الشحاذ الماهر في حرفته طريقة مميزة؛ فالاستجداء لا يعني لبس البالي من الثياب، أو بسط اليد، لكنه فن في قنص الدراهم، فالمستجدي الحاذق يلجأ إلى الكناية لا التصريح، دخل عبدالملك بن صالح على الرشيد فقال له: اسالك بالقرابة والخاصة ام بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا امير المؤمنين يداك بالعطية اطلق من لساني فاجزل عطيته"(ابن حجة الحموي، د.ت، ج٢، ص١٢٥).

ومن دروس الاستجداء الاعتماد على الجمل القصيرة، التي تعبر عن المعنى بحسن فصاحة اللفظ، وبلاغة الأسلوب ، فيؤثر في نفس المانح، كقول احدى النساء في طلب الحاجة "أشكو إليك قلة الجرذان" ففهم ما وراء جملتها وأجزل لها العطاء بعد ان اعجب بقولها وقال: ما أحسن هذه الكناية! املئوا بيتها خبزا ولحما وسمنا وتمرا.(ابن حجة الحموي،د.ت،ج٢، ص١٢٥).

كما عليه أن يستخدم الكلمات التي تقطع عليه طريق الرفض، فيركز على تعظيمه، وحثه على العطاء، حتى ولو لم يرغب فيه، كقول احد السائلين "انت اعظم من يستعان بك او يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيئا الا وهو يصغر عنك وانت تكبر عنه وليس العجب ان تفعل ولكن العجب ان لا تفعل "(ابن حجة الحموي، د.ت،ج٢، ص١٢٥).

ويذكر صاحب ثمرات الاوراق رواية عن أبو جعفر المنصور أيام بني أمية "إذا دخل البصرة دخل متكتماً وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت إليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمدا فوصله بأثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: جئت مسلما فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال: أتيت عائدا فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا فأذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له: ما حاجتك يا أزهر قال: يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فإني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب"(ابن حجة الحموي، د.ت، ص١٢٦).

ويعد الكلام المسجوع أسلوبا شائعا من أساليب الاستمناح والاستجداء منذ بدايته وفي صورته الأولية، حيث الفقر الحقيقي والحاجة المُلحّة هما الدافع إلى السؤال وطلب العطاء، لا بعد أن تحوّل الاستمناح عبر العصور المتعاقبة إلى حرفة امتهنها البعض ونزعوا بها، واتخذوها وسيلة للتكسب وتحقيق المنفعة وتحصيل الغِنى والثراء. وهذا ما اشار اليه الثعالبي عندما جعل الكدية نوع من الكسب قائلا:" الكدية ربح بلا رأس مال (الثعالبي، ١٩٨١، ص٢٠٠) .

كان السّجع أسلوبا" شائعا" للاستمناح في صورته الأولية، اتّخذه العُفاة والسائلون وسيلة للاستجداء والاعتفاء، وسبيلاً للتأثير في قلوب الأغنياء، يستدرون به عطفهم ونوالهم "ومن طريف ما هدانا إليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة فهو عندهم فن من القول كالقصيد يتقربون به إلى قلوب الاغنياء"(مبارك، ١٤٤٣ م، ص٢٢). ويعترف الأحنف أن الكدية أصبحت مصدر رزقه وأن الناس يشاركونه هذه المهنة: (الاحنف، ١٤٢٠هـ،١٥٨)

قد كانت الكُديةُ إقطاعي فاستعصم الناس بأطباعي
قَنعتُ مضطرًا لضعف القوى عن نيلِ ما يدركه الساعي

وبرز شاعر آخر يعد من أفضل الذين يمثلون شعر الكدية في القرن الرابع الهجري هو الشاعر أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بن مهلهل شاعر كثير الملح والظرف مشحوذ المدية في الجدية خنق التسعين في لإطراب والإغتراب وركوب الأسفار الصعاب وضرب صفحة المحراب بالجراب في خدمة العلوم والآداب وفي تدويخه البلاد" وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله في جملتهم وقد فسرها تفسيرا شافيا كافيا اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظ كلها وأجزل صلته عليها ضمن هذا الشاعر قصيدته ألفاظًا غريبة واصطلاحات واشتقاقات في أنواع الكدية والاحتيال، وتشويه الشكل للخداع، وألفاظًا في أفانين الكدية وضروب المخادعة وأساليب تحصيل المال، ويذكر فيها غرائب المشاهدات، وتبقى الروح الفكاهية سارية في أبياتها كلها. كما نجد في القصيدة ألفاظًا نابية تخدش الحياء لكنها تدل على مدى عبثية هذه الفئة من البشر إذ اتخذت مثلا جديدة لها، وقيماً غريبة على المجتمع، ضاربة عرض الحائط بمفاهيم الدين والأخلاق والأعراف، ويصور الشاعر في قصيدته تنقل قومه الدائم ورحيلهم المتواصل وسعيهم في سبيل الكدية. يقول (الثعالبي، ١٩٨٣،ج٣، ص ٤١٦-٤١٧):

تعريت كغصن البان بين الورق والخضر
وشاهدت أعاجيبا وألوانا من الدهر
فطابت بالنوى نفسي على الإمساك والفطر
على أني من القوم البهاليل بني الغر
بني ساسان والحامي الحمى في سالف العصر
تغربنا إلى أنا تناءينا إلى شهر
فظل البين يرمينا نوى بطنا إلى ظهر
كما قد تفعل الريح بكثب الرمل في البر
فطبنا نأخذ الأوقات في العسر وفي اليسر
فما ننفك من صمي وما نفتر من متر
فأحلى ما وجدنا العيش بين الكمد والخمر

"كان هذا النوع من الشعر يريح الحكام ويرضي نفوسهم، فهو تعبير عن العوز والحاجة والشكوى من الجوع، دون ثورات تخلّ بالأمن، بل هو أقرب إلى الاستجداء. وفي مقامات الحريري مقامة تدعى بالساسانية أيضًا تتضمن أن أبا زيد السروجي بطل هذه المقامات لما شاخ أوصى ابنه بأن لا صناعة أنفع من الكدية، ويعلمه الاحتيال على المعيشة ولم الدراهم والدنانير "(الحريري، ١٨٧٣م، ص٢٧).

وتدور كل هذه الاشعار حول أساليب الكدية والاحتيال في زمن شَعر فيه هؤلاء المكدون بالظلم والجوع، فكان لابد لهم من التكيف مع هذا الواقع المرفوض، فلجأوا إلى الكدية بأساليب فكاهية، حتى يصلوا إلى مبتغاهم، لكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يمقتون الأغنياء، والموسرين وينفرون من الحكام والأمراء(اليافي،١٩٩٦، ص٣٩٤-٣٩٥).

المبحث الثالث: عوامل انتشار المكدين

ان الاستجداء حرفة لها أصول وقواعد، فقد سئل أحدهم عن كيفية تعلمه الكدية والسؤال قال: "يوم ولدت منعت الثدي، فصحت وبكيت، فأعطيت الثدي فسكت" (الراغب الاصفهاني، ١٤٢٠هـ، ص٦٣٣)، فالعطاء والمنع هما الدرس الأول الذي يتعلمه المستجدي في الحياة، حيث الاستجابة لطلبه يعني الصمت والعزوف عن البكاء، بينما المنع هو ما أثار غضبه على رغم حداثته.

والدرس الثاني يتمثل في كيفية السعي لكسب رزقه منذ اللحظات الأولى من بداية يوم جديد، لذلك يتفنن في كسب رزقه بطريقة بليغة واعية، حيث يبدو أن لطف الاستمناح هو سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل ولله در القائل (ابن حجة الحموي، د.ت، ج٢، ص١٢٥):

ان الكريم اخو المودة والنهي من ليس في حاجته بمثقل

في بداية العصر العباسي كانت الأموال موزعة توزيعاً غير عادل، فالخلفاء والوزراء وحواشييهما يعيشون في الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم، " تجثم في البؤس والحسرة كثرة الشعب التي كانت لا تجد يدا تمد إليها وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ولا يرتد بجوانحها، ويطعم الجائع فيما ويكسوا العاري أو يسقى الظمآن وتجسدت أحاسيس هذه الطبقات وتصورت عند الادباء والشعراء الكدية" (بودية، ٢٠١٥، ص١١).

وكانت أبواب الخلفاء وحواشيهم مفتوحة لنخبة من الشعراء والأدباء، ولا يستطيع الكثير منيم الدخول إلى أبواب السلطان وذويه، "وكان أدباء الكدية على رأس الممنوعين من الدخول إلى مجالس الخلفاء إلا بعضهم، لأسباب منها حاجة الخليفة إلى التسلية والضحك، التي كانت تسم أدباء الكدية وشعراءهم، ولقد مس الجوع والفقر أغلبية المجتمع في العصر العباسي، وحتى العلماء لم يسلموا منه فكانوا في حاجة ماسة إلى رغيف الخبز، كأبي سليمان المنطقي السجستاني وأبي حيان التوحيدي الذي قال:" خلصني ايها الرّجل من التّكفّف، أنقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضرّ، اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشّكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مؤونة الغداء والعشاء إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذّاوية، والقميص المرقّع، وباقليّ درب الحاجب، وسذاب درب الرّوّاسين؟ إلى متى التأدّم

بالخبز والزّيتون؟ قد والله بحّ الحلق، وتغيّر الخلق، الله الله في أمري، اجبرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صد، أغثني فإنني ملهوف، شهّرني فإنني غفل، خلّني فإنني عاطل. قد أذلّني السّفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب منّي.(التوحيدي،١٩٩٢، ص٤١٣).

وكان هذا النوع من التكفف يريح الحكام ويرضى نفوسهم في " تعبير عن العوز والحاجة والشكوى من الجوع دون ثورات تخل بالأمن، بل هو أقرب إلى استجداء وتكسب الأغنياء والامراء الذين يجودون ببعض المال، ويكونون مقصد المكدين والمحتاجين، وقد يسهمون في تصعيدها وتشجيعها كما فعل أحد ملوك بني بويه مع وزيره إذ اقترح عليه أن يكتب عهدا بالكدية" (بودية، ٢٠١٥، ص١٣).

ان المصادر التاريخية لا تعطينا احصائية دقيقة عن عدد المكدين في المجتمع العباسي الا بعض الاشارات التي نجدها في مضان المصادر(الحسين، ١٩٩٥، ص٣٠)، ومنها ما جاء على لسان ابن الفراء حين كان رسول ملك الروم يطوف به في بغداد مع الوزير الربيع :"فرأى على الجسر خلقا من ذوي الزمانة والعاهة يتصدقون ويسألون فقال الرسول للربيع وكان معه ما في ملك صاحبك عيب غير أمر هؤلاء الزمنى وقد كان يجب أن يراعى أمرهم حتى لا يجتمع عليهم مع الزمانة الفقر والمسئلة فقال الربيع لم يذهب ذلك عنه ولكن بيوت الأموال لا تتسع لذلك وبلغ المنصور ما جرى بينهما "(ابن الفراء، ١٩٧٢، ص٧٦).

ومن خلال ذلك نستطيع ان نستنتج بوجود خلل ناجم في ادارة الدولة وتقصير من قبل الخلفاء واهمالهم لاحوال الطبقات الفقيرة، ويبدو ان هناك جملة من العوامل وراء هذا العوز يأتي في مقدمتها العامل السياسي وما نجم عنه من حروب وثورات اشارت اليها كثير من المصادر التاريخية وبينت ما كانت تعانيه طبقات المجتمع من عنت وارهاق ولناخذ على سبيل المثال ما ذكره ابن الاثير ضمن حوادث سنة ٢٠١هـ قائلا:" وفي هذه السنة تجردت المتطوعة للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وكان سبب ذلك أن فساق بغداد والشطار آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق، وقطعوا الطريق، وأخذوا النساء والصبيان علانية، وكانوا يأخذون ولد الرجل وأهله، فلا قدر أن يمتنع منهم، وكانوا يطلبون من الرجل أن يقرضهم أو يصلهم، فلا يقدر على الامتناع، وكانوا ينهبون القرى لا سلطان يمنعهم، ولا يقدر عليهم، لأنه كان يغريهم، وهم بطانته، وكانوا يمسكون المجتازين في الطريق، ولا يعدي عليهم أحد، وكان الناس معهم في بلاء عظيم"(ابن الاثير، ١٩٩٧، ج٥، ص٤٨٢-٤٨٣).

وكان من حصيلة هذه الظروف الصعبة ان انصرفت فئات اجتماعية كثيرة الى امتهان الكدية والاستجداء لأنها اصبحت خاوية الوفاض لا تمتلك ما يسد الرمق وصار هم الفرد ان يجد ما يتقوت به مهما كان مصدره وقد شجعت على هذا التحول الاجتماعي فئات مشهورة

بالشحاذة ومنهم الزط الذين كانوا يتسولون ويحمون المتسولين وقطاع الطرق ويثيرون الشغب نتيجة تدني مستوى حياتهم المعيشية (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ج١٠، ص٢٦٦).

ويذكر الثعالبي ما أنشده الْأَحْنف العكبري لنَفسه وهو فَرد بني ساسان الْيوم بِمدينة السلَام وَحسن الطَّرِيقَة فِي الشعْر لامتلأت عجبا من ظرفه وإعجابا بنظمه وَلا أقل من إِيراد مَوضِع افتخاره فإِنهُ يَقُول:

على أَنِّي بِحَمْد الله فِي بَيت من الْمجد
بإخواني بني ساسان أهل الْجد وَالْحَد
لَهُم أَرض خُرَاسَان فقاشان إِلَى الْهِنْد
إِلَى الرّوم إِلَى الزنج إِلَى البلغار والسند
إِذا مَا أعوز الطّرق على الطراق والجند
حذارا من أعاديهم من الْأَعْرَاب والكرد
قَطعنَا ذَلِك النهج بِلَا سيف وَلَا غمد
وَمن خَافَ أعاديه بِنَا فِي الروع يَسْتَعْدِي

ولهذا الْبيت الْأَخير معنى بديع وَتفسيره يُرِيد أَن ذَوي الثورة وَأهل الْفضل والمروءة إِذا وَقع أحدهم فِي أَيدي قطاع الطَّرِيق وَأحب التَّخلُّص قَالَ أَنا مكدي (الثعالبي،١٩٨٣، ج٣، ص١٣٧). ولم يكن العامل الاقتصادي بعيدا عن مشهد الحياة الصعبة الذي كان يعيشه العامة من ذوي شرائح اجتماعية متنوعة من الزراع والفلاحين والصناع والكادحين والتي عانت من استغلال فئة السلاطين والوزراء والامراء وحاشيتهم والتي قامت حياتهم على البذخ والاسراف الى درجة اهدار الاموال الطائلة على بناء المنازل والقصور وما يحيط بها من بساتين وبرك للماء وبلغ من بذخ هذه الطبقة انهم اتخذوا الصحاف والاطباق من الذهب والفضة، وكانت مكافاتهم للشعراء والمغنين لا تعد ولا تحصى، وما كان على العامة الا ان تتحمل الكثير من البؤس والمآسي مما دفعهم الى تعطيل الاسواق واغلاقها رغبة في احتكار السلع من اجل رفع اسعارها وقد شهدت اسواق بغداد حالات متعددة ارتفعت فيها اسعار السلع وكان للمؤثرات السياسية من الفتن والاضطرابات والثورات اثر كبير في ذلك، مما كان يؤدي الى السلب والنهب فتعطل الاسواق وتزداد احوال العامة سوءاً، حتى تصل الى حد المجاعة واكل لحوم الحيوانات المحرمة والجيف، حيث ذكر الهمداني " وأكل الناس في يوم الغلاء النوى والميتة وكان يؤخذ البزر قطونا ويضرب بالماء ويبسط على طابق حديد ويوقد تحته النار ويؤكل فمات الناس بأكله وكان الواحد يصيح الجوع ويموت ووجدت امرأة قد شوت صبيا حيا"(الهمداني، ١٩٥٨، ص١٥٢).

ولم تكن الاضطرابات السياسية السبب الوحيد في ارتفاع الاسعار تعطيل الاسواق بل كانت الجائحة والكوارث والفيضانات والحرائق اثرها في تردي الوضع الاقتصادي الذي كان اثره يعود على عامة الناس.(الطبري، ١٣٨٧هـ ج١١، ص٢٠٨، ٢٩٦).

ومن العوامل الاخرى التي شجعت على انتشار الكدية والشحاذة هو العامل الديني الذي استغل من قبل المكدين ونجد ذلك واضحا من خلال مقامات الحريري "الحمد لله المبتدئ بالإفضال، المبتدع للنوال، المقرب إليه بالسؤال، المؤمل لتحقيق الآمال، الذي شرع الزكاة في الأموال، وزجر عن نهر السؤال وندب الى مواساة المضطر، وأمر بإطعام القانع والمعتر، ووصف عباده المقربين، في كتابه المبين، فقال وهو أصدق القائلين: والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والحروم، أحمده على ما رزق من طعمة هنية، وأعوذ به من استماع دعوة بلا نية"(الحريري،١٨٧٣، ص٣٠٨).

ان المجتمع العباسي ضم خليطاً من مختلف الاجناس والمذاهب الفكرية والعقائدية وان بعضها كانت تعد الكدية والشحاذة جزءا من عقيدتها اشار الجاحظ الى قصة الزنادقة بقوله: رهبان الزّنادقة سيّاحون؛ كأنهم جعلوا السّياحة بدل تعلق النّسطوري في المطامير ومقام الملكانيّ[٢] في الصّوامع .. ولا يسيحون إلا أزواجا، ومتى رأيت منهم واحدا فالتفتّ رأيت صاحبه، والسّياحة عندهم ألّا يبيت أحدهم في منزل ليلتين. قال: ويسيحون على أربع خصال: على القدس، والطّهر، والصّدق، والمسكنة. فأمّا المسكنة، فأن يأكل من المسألة، وممّا طابت به أنفس النّاس له حتّى لا يأكل إلّا من كسب غيره الذي عليه غرمه ومأثمه...".(الجاحظ، ١٤٢٤، ج٤، ص٤٨٦).

المبحث الرابع: انواع الكدية

ان الفقير والشحاذ في الطرقات والأسواق عليه أن يقتصد في السؤال على قدر حاجته، ولا يلح في، ويجمل في الطلب ولا يضيع أوقاته في العي فيه. "فترى كثيراً اتخذوا السؤال عادة وصناعة يسألون عن غير حاجة ويقعدون على أبواب المساجد وغيرها يشحذون، ولا يصلون، ومنهم من يقسم على الناس في سؤاله بما يقشعر الجلود عند ذكره، وذلك منكر قبيح، وبعضهم يستغيث بأعلى صوته "لوجه الله فلس أو رغيف". وقد جاء في الحديث: "لا يسأل بوجه الله إلا الجنة". وبعضهم يقول: "يشيبه أبي بكر فلس" فانظر ماذا يسألون من الحقير، وبماذا يستشفعون به من العظيم، ويسمعهم اليهود والنصارى ويروا المسلمين ربما لا يعطوهم شيئًا، فيشتمون، ويسخرون، وربما كان المسلم معذورًا في المنع، والكافر لا يفهم،

---

[٢] الملكاني، ويقال: الملكائي: واحد جماعة الملكانية أو الملكائية، وهم منسوبون إلى «ملكا» ويعني بالسريانية الملك ، والمقصود بهم: أتباع مذهب قياصرة الروم.(ينظر: الخوارزمي، محمد بن احمد(٣٧٨ه) مفاتيح العلوم، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، ط٢، لا.ت، ص٥٢)

والرأي الصالح في مثل هذا الشحاذ أن يؤدب وغيره، حتى لا يعود إلى هذه المقالة، أو نحوها. ومنهم من يكشف عورته ويمشي عرياناً بين الناس، يوهم أنه لا يجد ما يستر به عورته، إلى غير ذلك من حيلهم ومكرهم" (الشمري،١٩٩٦، ص٣٨٧).

وبعضهم الاخر مارس الكدية من خلال النثر والشعر وعبروا عن حاجتهم وصوَّرُوا فاقتهم، بأبلغ وصف وأفصح مقال. تلك الصور على تنوع مضامينها وتباين معانيها واتجاهاتها من الشكوى ووصف سوء الحال والتوسل بالدعاء أو المدح وإسداء النصح والوعظ جاءت على أشكال ثلاث، يحددها رد فعل وقد نجدها مذيلة بالشكر والعرفان، وأحيانا بالذم المسئول؛ فقد لا نجد في ذيل الكدية شكرا ولا ثناء، والهجاء، وعليه فقد قسمنا العرض في هذه المسألة إلى ثلاث صور؛ أولها: الكدية المجردة، وثانيها: الكدية المغبونة، وثالثها: الكدية الميمونة.(الحسنين، ٢٠٢٠، ص١٢٨).

أولا: الكدية المجردة:

وهي التي لم يصرحُ فيها المكدي بثمرة الاستجداء ونتيجته، فتأتي خالية من ذكر العطاء أو المنع، مجردة. ومثال ذلك ما حدّث به محمد بن القاسم الأنباري قائلا:" قدم أعرابي من البادية فوقف على الناس فقال: "أنا عكاب بن عدينة أبوت عشرة وأخوت عشرة، وكنت مفزعا للجمة، مقنعا للهمة، أهنأ الفقير، وأفك الأسير، وأذيل العسير، فانباق علي الدهر متخوفا لإخوتي وبنيّه، يوديهم واحداً واحداً، حتى اخترم ظهرتي، وأفنى عمارتي، وأساف ماليه، وأباد رجاليه، وكنت أورد إبلي سحراً وأصدرها طفلاً، عكراً دثراً، ومالاً وفراً، قليلة الفرش والإفال، حسنة الحلية والفحال، فانتسفها الزمان، واجتملها الحدثان، حبجا وغدة، فقرع مراحي، وفنت أوضاحي، فهل من راحمٍ أخا جهدٍ ولأواء وشصاصاء، شملكم الله بإسباغ الرزق"[٣].

وهذه صورة من صور الكدية ترتكز على تصوير نوائب الدهر وصروف الزمان، تبين حال هذا السائل المستجدي بعد أن كان مسؤولاً مُعطياً.

قال الأصمعي: أصابت الأعراب أعوامٌ جدبة وشدة وجهد، فدخلت طائفة منه البصرة، وبين أيديهم أعرابي وهو يقول: "أيها الناس، إخوانكم في الدين، وشركاؤكم في الإسلام، عابرو سبيل، وفلال بؤس، وصرعى جدب، تتابعت علينا سنونٌ ثلاثة، غيّرت النِّعم وأهلكت النَعم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا، ونمنّي بالغيث قلوبنا، حتى عاد مخنا عظاماً، وعاد إشراقنا ظلاما وأقبلنا إليك يصرعنا الوعر، ويُكننا

[٣] أبوت وأخوت معناه كنت أبا لعشرة وأخا لعشرة مفزعا للجمة لجأ للقوم والجماعة العظيمة يسألونه في الحمالة والديات ليتحملها عنهم مقنعا يقنع به ويرضي برأيه وينتهي إلى أمره الهمة ملهمَّ به من أمرٍ ليفعله، أي إذا هم بأمر أمضاه وأتى به على أحسن وجه. ينظر: أبو الفرج المعافي بن زكريا بن يحيى النهرواني، الجليس الصالح الكافي الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، تحقيق عادل شوشة، مكتبة فياض، ط ١ ، ٢٠٠٢ م ص٥٢٠.

السهل، وهذه آثار مصائبنا، لائحةٌ في سماتنا، فرحم الله متصدقا من كثير، ومواسيا من قليل، فلقد عظمت الحاجة، وكسف البال وبلغ المجهود، والله يجزي المتصدقين".

ويبدو من النص ان الجدب وشدة الفاقة سببا لاستجداء الأعرابي، وداعياً لكديته، فلم يكن استجداؤهم لتحقيق كسب أو ثراء، بل كان لتحصيل ما يسدّ الرمق ويقيم الأود، في باديةٍ، السائدِ فيها شدة الفقر والعوز، يدل عليه إحساس بعض الأعراب بذلّ المسألة، واستشعار هوان الاستجداء والطلب، بل وتضمين نموذج الكدية تصريحًا بذلك ودلالة عليه.

ذكر الجاحظ رواية تبين ان احد الاعراب في المسجد الجامع في البصرة كان يقول سنة ١٥٣هـ: "أما بعد فإنا أبناء سبيل، والضاء طريق، وفلّ سنةٍ، فتصدقوا علينا، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله، ولا عمل بعد الموت، أما والله إنا لنقوم هذا المقام وفي الصدر حزازة، وفي القلب غصة.(الجاحظ، ١٤٢٣،ج٢، ص٦٢).

قال: وجاءت أعرابية تسأل فقالت: يا قوم طرائد زمان وفرائس نازلة ولحمان وضمٍ، نبذتنا الرجال وأنشزتنا الحال وأطمعنا السؤال، فهل من مكتسب للأجر أو راغب في الذخر؟ وسأل أعرابي فقال: سنة جردت وحال جهدت وأيدٍ خمدت فرحم الله من رحم وأقرض من لا يظلم، وسأل أعرابي فقال: أين الوجوه الواضحات الصباح، والعقول الراجحات الصحاح، والصدور الرحاب السماح، والمكارم الثمينة الرباح؟ وسأل أعرابي فقال: رحم الله امرأً لم يمجّ أذنه كلامي وقدم لمعاذة من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة والحال مسغبة والحياء زاجر ينهى عن كلامكم والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم فرحم الله امرأً واسى بمير أو دعا بخير. فقال رجل: ممن يا أعرابي؟ فقال: أخٌ في كتاب الله وجارٌ في بلاد الله وطالب خيرٍ من رزق الله.(البيهقي،د.ت، ص٢٤٩)، وسأل آخر فقال: نقص الكيل وعجفت الخيل وقلّ النيل فهل من رحيم أجره لله فإنه غنى عن الله لقوله جل وعز: " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً "، لم يستقرض ربنا جل وعز من عدم ولكن ليبلو ويختبر(البيهقي، د.ت، ص٢٤، وسأل آخر فقال: إني جل من مدينة رسول الله، عليه وعلى آله السلام، مشيت حتى انتعلت الدم، فرحم الله من حملني على نعلين فكأنما حملني على ناقتين، فلا قليل من الأجر ولا غنى من الله جل وعز. وقيل لسائل أعرابي: أين منزلك؟ قال: ما لي منزل إنما أشتمل الليل إذا عسعس وأظهر بالنهار إذا تنفس.(البيهقي، د.ت، ص٢٤٩). ومن خلال ما تقدم نلاحظ ان هذه المرويات ترتكز على معاني الشكوى والدعاء والوعظ، وغيرها من المعاني التي تغلب على نموذج الاستجداء في كلام الأعراب.

ثانيا: الكدية المغبونة:

ومفهوم هذه الكدية لا يستجيب لها احد فقد يسأل الأعرابيُّ ويستجدي، فيرجع خالي اليدين، لا يجد لسؤله جواباً، ولا تلقى كديته نجحاً أو عطاءً، بل يقابل بالرفض والصد

والحرمان حيناً، أو يلقي من الاستهانة والعبث به، والتهكم منه ما يثير غضبه حينا آخر، وهذا النوع من الكدية خاسرة مغبونة، وقد اختلفت ردود الأفعال، وتباينت مواقف الأعراب، إزاء المنع بعد الاستجداء؛ إذ أثار الصدُّ والمنع حفيظة البعض، فهبوا ليُقابلوا الحرمان بهجاء المسئول وإبداء الضجر منه، في محاولة لاسترداد شيئا من كرامتهم، وحفظ ما تبقى من ماء الوجه تارة، أو بالرضا وكظم الغيظ والإعراض عن المسئول، والتضرع إلى الله بعدم الافتقار لبشرٍ تارة أخرى، مما تجلى فيه ما كان عليه بعضُ الأعراب من يقين بالله، وفهم واعٍ لحقيقة الرزق، وأنه بيد الله يوسع على من يشاء ويُضيق على من يشاء، لحكمة لا يعلمها إلا هو، وقف أعرابي في مجلس فقال: "الحمد لله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، إنا أناس قدمنا هذه المدينة ثلاثون رجلا؛ لا ندفن ميتا؛ ولا نتحول من منزل وإن كرهناه؛ فرحم الله عبدا تصدّق على ابن سبيل، ونضو– المهزول– طريق، ورسل سنة؛ فإنه لا قليل من الأجر؛ ولا غني عن الله، ولا عمل بعد الموت؛ يقول الله عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً" لكنه لم يجب الى طلبه، ومن حرمان العطاء بعد الاستجداء، الذي أبدي فيه الأعرابُ ضجراً، وملأ صدورَهم حنقا وغيظا، ما كان من أعرابيّ وقف في شهر رمضان على قوم، يشكو حاجته، وشدة جوعه وفاقته قائلاً: "يا قوم: لقد ختمتْ هذه الفريضةُ على أفواهنا من صبح أمس، ومعي بنتان لي، والله ما علمتهما تحللتا بحلال، فهل رجل كريم يرحم اليوم مقامنا، ويرد حُشاشتنا؟ منعه الله أن يقوم مقامي، فإنه مقامُ ذلّ وعار وصغار. فافترق القومُ ولم يعطوه شيئا فالتفت إليهم حتى تأمّلهم جميعاً ثم قال: "أشدُّ والله علىّ من سوء حالي وفاقتي، توهمي فيكم المواساة، انتعلوا الطريق، لا صحبكم الله"(ابن عبد ربه الاندلسي، ١٤٠٤هـ، ج٤، ص١٧–١٨)، فمع ما يستشعره الأعرابيُّ من ذل السؤال وعار الاستجداء بدا جليا في قوله "فإنه مقام ذل وعار وصغار" إذا بالمنع وحرمان العطاء أشدّ في النفس ألماً، وأكثر قسوةً ووقعا، "لا اعرف ضراً أوصل إلى نياط القلب من الحاجة إلى من لم تثق بمودته ولا ترضاه ولا تأمن رده"(صفي الدين الحلبي، ١٩٩٧، ج١، ص١٨٧).

وقال اعرابي في قوم "أشكو إليكم زماناً كلح لي بوجهه وأناخ علي بكلكله بعد نعمة من البال وثروة من المال وغبطة من الحال اعتورتني جديداه بنبال مصائبه عن قسي نوائبه فما تركا لي ثاغية أجتدي ضرعها ولا راغية أرتجي نفعها فهل فيكم معين على صرفه أو معد على حيفه فردوا عليه ولم ينيلوه شيأً فولي عنهم وهو يقول قد ضاع من يأمل من أمثالكم ... جوداً وليس الجود من أفعالكم لا بارك الله لكم في مالكم ... ولا أزاح السوء عن عيالكم فالموت خير من صلاح حالكم وفي النموذج من الشكوى ووصف سوء الحال، تصوير الزمان وقد تغير، والدهر وقد تحول وتبدل، فنال من الأعرابي وقلب له ظهر المجنّ بإنسان

كالح عبوس، وتصوير وقع نوائبه وعظم دواهيه ومصائبه بالبعير وقد برك بصدره، وأناخ بكلكله وألقى بثقله على الأرض، مما يوحي بقسوة الزمان وشدة وقعه على الأعرابي.

ثالثا: الكدية الميمونة:

وهي التي رجع صاحبها مجبور الخاطر، قد نال بغيته، وظفر بمنحة مسئوله؛ فكثيرًا ما وجد استجداء هؤلاء الأعراب سبيلاً إلى قلوب الأثرياء، فتأثّروا بقولهم، وبما بدا عليه حالهم من فقر وشظف عيش، وإذا بهم يُكرِمون وفادتهم، ويجزلون لهم المنة والعطاء. وقد تعدد ت المضامين، وتباينت المعاني والاتجاهات، لنموذج الاستجداء مع العطاء في كلام الأعراب، من مدح ودعاء، ووعظ ورضا بالقليل، أو استقلال العطية وطمع في الكثير، واستنجاح بلطيف الكلام، أو حرص على الطلب وإلحاف في السؤال، إلى غير ذلك من معانٍ مختلفة ومضامين متباينة، ترتكز في مجملها على عنصر واحد وتدور في إطاره، هو الشكوى ووصف سوء الحال، التي تُمثّل بدورها سببً أصيلاً في الاستجداء، وداعيًا رئيساً للاستمناح وطلب العطاء، ذكر بعض الرواة أن مالك بن طوقٍ التغلبي في ولايته على الموصل في عهد المتوكل العباسي كان جالسا في بهوٍ مطلّ على رحبته ومعه جلساؤه، إذ أقبل أعرابيٌّ تخب به ناقته، فقال: إياي أراد، ونحوي قصد، ولعل عنده أدبا ينتفع به. فأمر حاجبه بإدخاله، فلما مثل بين يديه قال:ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: الأمل في سيْب الأمير والرجاء لنائله. قال: فهل قدمت أمام رغبتك وسيلة؟ قال: نعم، أربعة أبيات قلتها بظهر البرية، فلما رأيتُ ما بباب الأمير من الأبهة والجلالة استصغرتها، قال: فهل لك أن تنشدنا أبياتك؟ ولك أربعة آلاف درهم، فإن كانت أبياتك أحسن فقد ربحنا عليك، والا قد نلت مرادكَ وربحت علينا، قال: قد رضيت، فأنشده:

وما زلت أخشى الدهر حتى تعلقت يداى بمن لا يتّقى الدهر صاحبه
فلما رآنى الدهر تحت جناحه رأى مرتقى صعبا منيعا مطالبه
وأنى بحيث النجم فى رأس باذخ تظلّ الورى أكنافه وجوانبه
فتى كسماء الغيث والناس حوله إذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

قال: قد ظفرنا بك يا أعرابى، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم. قال: فإن لي صاحبا شاركته فيها ما أراه يرضى بيعي، قال: أتراك حدّثت نفسك بالنكث؟ قال: نعم، وجدت النكث في البيع أيسر من خيانة الشريك، فأمر له بها.(القيرواني،د. ت، ج٤، ص١١٦٠-١١٦١).

وقصد بعض الشعراء معن بن زائدة الشيباني يستجديه فأذن عليه فلم يأذن له الحاجب وكان معن في بستان له فعمد الشاعر إلى قطعة خشب وكتب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فمالي إلى معن سواك رسول

وأرسلها في ساقية تصل إليه فلما وصلت إليه وقرأها أذن له ووصله بعشرة آلاف درهم "(الوطواط، ٢٠٠٨، ص٣٣٠).

ويذكر البيهقي روايات حول هذا النوع من الكدية منها " أبو دلامة دخل على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد؟ قال: أعطوه. قال: كلب بلا صقر؟ قال: أعطوه صقراً. قال: كلب وصقر بلا بازبان؟ قال: أعطوه غلاماً بازباناً. قال: فلا بد لهم من دار! قال: أعطوه داراً. قال: فمن أي شيء يعيشون؟ قال: قد أقطعتك أربع مائة جريب منها مائتا جريب عامر ومائتان غامر. قال: وما الغامر؟ قال: الخراب. قال: فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدهناء غامرة. قال: فقد جعلتها كلها عامرة فهل بقي لك شيء؟ قال: نعم تدعني أقبل يدك. قال: ليس إلى ذلك سبيل. فقال: ما منعتني شيئاً أهون على عيالي من هذا" (البيهقي، د.ت، ص٢٤٩).

وفي رواية اخرى "بعث المنصور إلى زياد بن عبد الله مالاً وأمره أن يفرّقه في القواعد والأيتام والعميان، فدخل إليه أبو حمزة الرقيّ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! قد بلغني الكبر فاكتبني في القاعدين. قال: يغفر الله لك إنما القواعد النساء اللواتي قعدن عن الأزواج. قال: فاكتبني في العميان فإن الله جل ذكره يقول: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وأنا أشهد أن قلبي أعمى، واكتب ولدي في الأيتام فإن من كنت أباه فهو يتيم. قال: اكتبوه في العميان واكتبوا ولده في الأيتام".(البيهقي، د.ت، ص٢٤٩).

من خلال ما تقدم يتبين لنا ان الكدية تنوعت صورها فالاولى تتمثل في صورة الكدية على تنوع وسائلها وتباين معانيها واتجاهاتها من الشكوى ووصف سوء الحال والتوسل بالدعاء أو المدح وإسداء النصح والوعظ غير أن المكدي لم يصرحُ فيها بثمرة الاستجداء ونتيجته، فجاءت خلوا من ذكر للعطاء أو المنع، فهي بمثابة الاستمناح المجرد، والصورة الثانية هي الكدية الناجحة، التي شُفعت ورجع صاحبها بعطاء ميمون، فانقلب إلى أهله مسرورا، يهش ويبش، يثني على مانحه ويشكره على عطيته.

والصورة الثالثة هي الكدية التي قوبلت بالرفض والصد، على الرغم من كونها غالبًا استمناحاً لتحصيل أسباب العيش وضرورات الحياة، ولم يكن وسيلة لتحقيق كسبٍ أو ثراء، فهو استمناح في صورته الأولية، دعت إليه الحاجة وشدة الفاقة، ومع ذلك فقد باء بالفشل والغبن، فرجع صاحبها عابس الوجه مكفهرا، يدعو على المسؤول ثبورا، يهجو تارة ويلوم أخرى. وقد اورد الجوبري حادثة عن احد المكدين تكشف عن تواني وامتهان ماء الوجه فقال:" أني كنت في قونية من بلاد الروم سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م) فمررت في بعض الشوارع، فرأيت إنسانًا عليه ثياب خلقة، وهو ملقًى على جنبه، ورأسه معصب بخرقة، وهو يئن أنين الضعيف، ويقول: من يقضي شهوتي برمانة؟ فلما نظرت إليه قلت: وعزة الله، من بني

ساسان، ولا بد ما أُبصر ماذا ينتهي إليه أمره. فجلست قريبًا منه بحيث أراه ولا يراني، فصارت الدراهم تتساقط عليه مع القطع والفلوس والخبز وغيره، فلم يزل كذلك إلى وقت القائلة حتى خفت الناس عنه الرائح والجائي، فلما رأى ذلك التفت يمينًا وشمالًا فلم يَرَ أحدًا، فوثب مثل البعير المنشط إذا فُكَّ من عقاله، وجعل يخترق الأزقة والشوارع وأنا خلفه، إلى أن انتهى إلى زقاق غير نافذ أمام باب دار حسنة البنيان بمساطب وفانوس معلق، فرقي العتب وطرق الباب، ففُتح له وهمَّ بالعبور فأدركته وقلت: السلام عليك. فقال: وعليك السلام، من تكون؟ فقلت: ضيف. فقال: مرحبًا بالضيف. ثم أخذ بيدي وقال: خير مُقدم، ادخل. فدخلت قاعة واسعة فيها من البسط والفرش والمساند واللحف ما لا يوجد إلا عند الأكابر من أبناء الدنيا، فقال لي: اصعد. فصعدت على طراحة حسنة، وأما صاحبي فإنه رمى من رقبته مزودًا فيه مقدار عشرة أرطال خبز، وفيه دراهم وفلوس شيء كثير، ثم شد وسطه بفوطة تساوي دينارين، وخلع ذلك الخلق، فقدمت له الجارية ماء سخينًا وطشتًا ليتغسل، ثم لبس بدلة قماش فاخرة، وشم ماء ورد ممسَّكًا وتطيب، فرأيت له شعرًا طويلًا، وطلع فجلس إلى جانبي، وقال لي: والله هذا نهار مبارك برؤيتك. فقلت: بارك الله فيك وأعانك على ما أنت بصدده. ثم قال: يا حرير –وهو اسم جاريته – هاتي ما عندك برسم ضيفنا. فما أدري إلا والجارية قد أحضرت مائدة عليها أربع زبادي صيني، في كل واحدة لون فاخر طعام خاص وخبز خاص وبقل من جميع البقول، ثم أحضرت سكَّر دانًا عليه حرِّيف ومالح وحامض، فصار يأكل ويلقمني ويؤانسني بالحديث، وأنا أعمل باليدين، إلى أن اكتفينا، وغسلنا أيدينا، فقال لي: إليك المعذرة، جئتنا على غير وعد، لكن الكريم يسامح. ثم تحدثنا ساعة، ونادى: يا حرير، هاتي لنا ما نتحلى به، فأحضرت أنواعًا من الحلوى لم تحصل إلا عند الأغنياء الكبار، فأكلنا منها حسب الكفاية.هذا وأنا في غاية التعجب ثم قلت له: لو فتحت لك دكان بزلكان — ويُروى: بزاركان–لكان خيرًا لك من هذه الحرفة التي تعانيها، فتبسم ثم قال لي: كم يكون مكسب التاجر كل يوم لو كان رأس ماله خمسة آلاف دينار؟ قلت: لعله يكسب نصف دينار. فقال: أنا يقع لي كل يوم خمسة عشر درهمًا وأكثر وأقل فائدة بغير رأس مال، فماذا أصنع بالدكان؟! مع أن التاجر لا يخلو من الخسارة في بعض الأوقات، وعليه كُلَف، أما أنا فربح بلا خسارة. فقلت له: ماذا تصنع بالخبز الذي يصل لك كل يوم؟ قال: نُيَبِّسهُ ونعمله فتيتًا، فتجيء تجار أنطاكية يشترونه لسفر المراكب في البحر المالح، فيحصل لنا منه كل سنة مئونة أهل البيت وكسوتهم. فتعجبت من ذلك (الجوبري ، ١٣٠٢هـ،ص٤٩).

ويتبين لنا ان المدن كانت مراكز استقطاب لتجمعاتهم ومنها كانوا يقصدون الاماكن العامة للكدية وكانت المساجد من اشهر الاماكن التي يقصدونها وقد عرفت بعض فئاتهم بالكدية فيها كما اشرنا سابقا منهم المفلفل والمكي والكان وقد شاهد المقدسي اثناء تواجده في

شيراز عدد المكدين وخاصة يوم الجمعة قائلا:" ولا تسمع الخطبة من صياح السؤال(المقدسي، ١٩٩١، ص٤٢٩).

ومن الاماكن التي يتواجد فيها المكدين الاسواق والطرقات العامة يستجدون فيها ويسالون الناس بالعابهم وهراش حيواناتهم وكانت الجسور من المعالم الي يتخذوها مكانا للكدية وهذا ما ذكره التنوخي في نشواره تحت عنوان مكديان بغداديان يحتالان على الناس ويصف حالتهم بقوله:" انه كان بها – بغداد– في طرفي الجسر سائلان اعميان يتوسل احدهما بامير المؤمنين علي عليه السلام والاخر بمعاوية ويتعصب لهما الناس وتجيئهما القطع دارة فاذا انصرفا جميعا، اقتسما القطع وانهما شريكين يحتالان بذلك على الناس"(التنوخي، ١٣٩١هـ،ج٢، ص٣٥٨).

والشائع عن حياة المكدي انه لا يستقر في مكان دائم وقد روى احد تجار عمان عن مكدي كان سائل بالابلة وسائل بالصين بقوله:" قال: كنت بالأبلّة، أريد الخروج إلى البحر، فرأيت سائلا بباب الجامع، فصيح اللسان، مليح المسألة، فرققت له، وأعطيته دراهم صالحة، وخطفت في الوقت إلى عمان، فأقمت بها شهورا، ثم قضي لي أن مضيت إلى الصين، فدخلتها سالما، فإذ أنا يوما أطوف، فإذا الرجل بعينه قائما في السوق يتصدّق. فتأملته، فعرفته، فقلت له: ويحك، سائلا بالأبلّة، وسائلا بالصين. فقال: قد دخلت إلى هذا البلد، ثلاث دفعات، وهذه الرابعة، لطلب المعيشة، فلا أجدها إلّا من الكدية ، فأرجع إلى الأبلّة، ثم أرجع إلى هاهنا. قال: فعجبت من شدّة حرمانه"(التنوخي،١٣٩١هـ، ج٣، ص٧٨).

وكانت طريقة استجدائهم تتم وفق تخطيط قد نجده مرة ينتشرون فرادى ومرة مثاني ومرة اخرى بشكل جماعات صغيرة (الجوبري،١٣٠٢، ص٥٤)، وهذا ما تم ذكره سابقا عند الحديث عن زكيم المكافيف والمخطراني، ويبدو انهم اتخذوا في العصر العباسي نظاما تعليمياً اشار اليه التنوخي قال لي بعض المكدّين ببغداد، عن شيخ لهم أيسر، وعظمت حالته، حتى استغنى عن الشحذ، فكان يعلّمهم ما يعملون"(التنوخي، ١٣٩١هـ، ج٨، ص٢٧٢).

ويؤكد ذلك ايضاً البيهقي نقلاً عن الجاحظ قال:" سمعت شيخاً من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة فسأله الشيخ عن حاله فقال: لعن الله الكدية ولعن أصحابها من صناعة ما أخسها وأقلها، إنها ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال، وهل رأيت مكدياً أفلح؟ قال: فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه فقال: يا هذا أقلل الكلام فقد أكثرت، مثلك لا يفلح لأنك محروم ولم تستحكم بعد وإن للكدية رجالاً فما لك ولهذا الكلام! ثم التفت فقال: اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطيّ قرنانٍ وكل حائك صفعان وكل ضرّاط كشحان يتكلم سبعاً في ثمان إذا لم يصب أحدهم يوماً شيئاً ثلب الصناعة ووقع فيها، أو ما علمت

أن الكدية صناعة شريفة وهي محببة لذيذة صاحبها في نعيم لا ينفد فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب حيث ما حلّ لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء، يأخذ أطايب كل بلدة؟ فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة، ووقت الشبّوط وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرنيّ والأزاذ والرّازقيّ والرمان المرمر ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان، ووقت اللوز الرطب والسختيان والطبرزد بالجبل، يأكل طيبات الأرض، فهو رخي البال حسن الحال لا يغتمّ لأهل ولا مال ولا دار ولا عقار، حيث ما حلّ فعلفه طبليّ، أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجدها الأعظم وعليّ فوطة قد ائتزرت بها وتعممت بحبل من ليف وبيدي عكازة من خشب الدفلى وقد اجتمع إلي عالم من الناس كأني الحجاج بن يوسف على منبره وأنا أقول: يا قوم رجل من أهل الشام ثم من بلد يقال له المصيصة من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الركّاضة وحرسة الإسلام، غزوت مع والدي أربع عشرة غزوة سبعاً في البحر وسبعاً في البر، وغزوت مع الأرمنيّ، قولوا رحم الله أبا الحسن، ومع عمر بن عبيد الله، قولوا رحم الله أبا حفص، وغزوت مع البطال بن الحسين والرنرداق بن مدرك وحمدان بن أبي قطيفة، وآخر من غزوت معه يازمان الخادم، ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك، من سمع باسمي فقد سمع ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي، أنا ابن الغزيّل بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور والضارب بالسيف والطاعن بالرمح، سدٌّ من أسداد الإسلام نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذراري وسبى النساء، وأُخذ لنا ابنان وحملا إلى بلاد الروم فخرجت هارباً على وجهي ومعي كتب من التجار فقطع عليّ وقد استجرت بالله ثم بكم فإن رأيتم أن تردّوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده! فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت عليّ الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم. فوثب إليه الشاب وقبل رأسه وقال: أنت والله معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيراً".(البيهقي،د.ت، ٢٤٦-٢٤٧).

يتبين لنا من خلال ما تقدم ان نظام التلمذة وتعليم الكدية كان وفق نظام تعليمي وله شيوخ يتدربون على يديه لامتهان الحرفة لكن المصادر لم تبين مراتبهم الا ما ذكره الجاحظ عن خالد بن يزيد وهو خالويه رئيس المكدين ويأتي بعده كاجار الذي يقود مجموعة المكدين تحت يده وهم (المخطراني، المستعرض، كاغاني، بانوان، قرسي، عواء، مشعب، فلور، مزيدي، اسطبل) ثم العريف(الجاحظ، ١٤١٩هـ، ص٧١-٧٢).

المبحث الخامس: ملابس الكدية وفنون المكدين في الاستجداء

تميزت ملابس المكدي كلا حسب طبيعة عمله فالمخطراني تكون ملابسه بهيئة ناسك.(الجاحظ، ١٤١٩هـ، ص٧٩)، والمكي يكون سرواله واسع ديبقي وفيه تكة ارمنية قد

شدها الى عنقه(البيهقي، د.ت، ص٢٤٧)، اما زكيم الحبشة فكان لباسه من "دراعة صوف مضروبة مشقوقة من خلف وقدام وعليه خف ثغري بلا سراويل" واشار المقدسي ان المكدي في شيراز يلبسون الطيالس (المقدسي،١٩٩١، ص٤٢٩).

مارس المكدين انواع مختلفة من الفنون والحيل من اجل اقناع العامة بحالهم واستجداء الاموال مقابل تلك الحيل ومنها لعبهم بالحيوانات وتدريبها ذكر صاحب كشف الاسرار" واصحاب القردة والدبب والذين يؤلفون بين القط والفأر ويُروى صاحب كشف الاسرار ما شاهده بحرَّان سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) ان احد المكدين "أخذ قرداً وعلمه السلام على الناس والتسبيح والسواك والبكاء، ثم رأيت من هذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد من الناس، فإذا كان يوم الجمعة جاء عبد هندي لطيف الملبوس حسن الشمائل إلى الجامع ومعه سجادة حسنة فيفرشها عند المحراب، فإذا كانت الساعة الرابعة جاء القرد بملبوس عظيم من ملابس الملوك وفي وسطه حياصة ذهب مرصعة بأنواع الجواهر، وقد طيبه بأنواع الطيب، وأركبه بغلةً بقماش فاخر وركابات محلاة بالذهب، ثم يمشي في خدمته ثلاثة عبيد هنود بأفخر ما يكون من الملبوس، الواحد يحمل وطاءه، والثاني تاسومتهَ والثالث يمشي قدامه كالحاجب له. وهذا القرد لا يمر على أحد إلا سلم عليه طول الطريق، فإذا وصل إلى باب الجامع نزل، فيقدمون له التاسومة –السرموزة– فيلبسها ثم يعضده العبد إلى أن يصل إلى الموضع الذي فيه السجادة، وهو مطرق بالهيبة والسكون، وكل من سأل عنه يقال له: هذا ابن الملك الفلاني من أكبر ملوك الهند وهو مسحور، ثم يفرش له العبد الوطاء فوق السجَّادة، ويحط له مسبحة وسواكًا، فيقلع القرد بيده منديلًا من وسطه من الحياصة ويضعه قدامه، ثم يتناول المسواك فيستاك به، ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يأخذ المسبحة ويسبح. فإذا فعل ذلك قام العبد الكبير وسلم على الناس، وقال: يا أصحابنا، من أصبح معافًى فليشكر الله على ما أنعم عليه، واعلموا أن بني آدم هدف للبلايا، فمن ابتُلي فليصبر ومن عوفي فليشكر، واعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم لم يكن والله في زمانه أحسن منه شبابًا، وهو ابن الملك الفلاني صاحب الجزيرة الفلانية، فسبحان من سلب منه الحسن والملك، ومع ذلك فإنه لم يُرَ في الناس أرحم منه قلبًا ولا أروع منه، وإنما هذه الدنيا كثيرة المحن، فكان من القضاء المقدور أن أباه زوجه بابنة الملك الفلاني، فأقامت معه كذا وكذا سنةً، ثم نقلوا إليها أنه عشق غيرها، فهربت إلى بيت أهلها، ولما حصلت عند أمها سحرته أمها، فصار قردًا كما ترون. فلما علم والده بذلك أمر السحرة والأطباء والحكماء أن يردوه إلى صورته، فعجزوا عن ذلك فأمر بإخراجه من الإقليم لما لحقه من العار بين الملوك، وقد سألنا زوجته فيه غير مرة أن تعيده إلى حالته الأولى فامتنعت، وقالت إنها تركت عنده أثاثًا قيمته مائة ألف دينار، وحلفت لا ترده إلى صورته إلا بها، وقد درنا به البلاد، وتعصبت له

الملوك والتجار، فجمعنا له تسعين ألف دينار وبقي عشرة آلاف دينار، فمن يساعده بشيء من ذلك ويعينه على ما قُضي عليه ويرحم هذا الذي عدم شبابه وملكه وأهله ووطنه؟ فإذا سمع القرد ذلك وضع المنديل على وجهه وبكى أمرَّ بكاء بدموع كالمطر، فترق له القلوب، وما من الحاضرين إلا ومن يردفه بشيء، فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير، وهم يدورون به البلاد على هذه الصفة، فاعلم ذلك"(الجوبري، ١٣٠٢، ص٤٥-٤٨).

ومن فنونهم الاخرى انتمائهم الديني واظهروا تكليفهم الشرعي ومنهم طائفة البنوان الذين يظهرون الورع والنائح المبكي من يظهر حبه للرسول صلى الله عليه واله وعلي بن ابي طالب عليه السلام ومعاوية بن ابي سفيان كما اشرنا سابقاً.

وهناك طائفة اخرى تقوم بخداع العامة بواسطة الدواء والعلاج وقد اشار الجوبري عن اعضاء هذا الصنف من المكدين وقال:" ان هذه الطائفة اكثر مكراً وحيلاً من غيرهم ولهم امور عجيبة وهم اجناس كثيرة وضروب لا يقع عليها احصاء ... منهم من يتكلم على العقاقير وهم اكثر كذباً على الناس ومنهم من يتكلم على دواء الدود ومنهم من يتكلم على الادهان ومنهم من يتكلم على مرارة الطبع"(الجوبري،١٣٠٢هـ، ص١٠٢).

المبحث السادس: وسائل ممارسة الكدية

تعد شخصية المكدي من الشخصيات التي تميزت بالدهاء والمكر والحيلة وقد مارس المكدي وسائل عديدة من اجل تصديق العامة له ومن هذه الوسائل كان يظهر للعامة بكونه اعمى العين ليمارس حرفته في الاستجداء من خلال "اخذ دم القراد جزء ومن الصمغ العربي جزء ثم اكتحل به على اطراف الاجفان فتطبق وتلتصق فلا يشك من يراه انه اعمى" واذا اراد ان يفتحها غسلها بالماء والصابون(الجوبري،١٣٠٢هـ، ص٤٥).

ومنهم من يدعي به مرض الاستسقاء[٤] " وهو اخذ التبن وبيض النمل فيغلى الجميع حتى يبقى الربع ثم يشربه فكتبر بطنه ويصفر وجهه حتى يخيل من راه ان به علة الاستسقاء" واذا اراد ان يرجع الى طبيعته يشرب ماء الهندباء مع السكر الطبرزد (الجوبري، ١٣٠٢هـ، ص٤٥)، ومن خلال ما تقدم يتبين لنا ان هؤلاء كانوا يعرفون صناعة الداء فضلا عن معرفتهم بالعلاج الذي كانوا يأخذوه بعد عودتهم الى منازلهم؛ فضلا عن ان الامراض التي كانوا يتخذوها وسيلة للاستجداء لم تكن من الامراض المميتة بل كانت اعراضها تكون واضحة من شحوب الوجه واصفراره والتي تبين للعامة اما بمرض او بجوعه الشديد.

[٤] الاستسقاء هو ان ينتفخ البطن وغيره من الاعضاء وهو على ثلاثة انواع زقي وطبلي ولحمي فأما الزقي أن تنتفخ البطن وتتثؤ السرة وتسمع خضخضته إذا حركته، واللحمي: أن يكون في الأحفان والأطراف ورم رخو وترم الأنثيان ويترهل الوجه والبدن كله، والطبلي: أن يكون البطن منتفخاً متمدداً يسمع منه إذا ضرب مثل صوت الطبل، وسمى هذا الداء: الاستسقاء والسقي لدوام عطش صاحبه،(ينظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص١٨٨).

الخاتمة:

توصل البحث الى مجموعة من النتائج وهي:

١. الكدية ظاهرة اجتماعية نشأت في العصر العباسي انطلاقا من القرن الرابع الهجري، وتمدد جذورها من العصر الاموي في أدب التكسب كأدب الصعلكة.
٢. تعددت الفاظ الكدية وتنوعت بين الكدية والشحاذة والكداش والرضيع وجميع هذه الالفاظ تعطي المعنى نفسه وهو الاستجداء.
٣. كان سبب ظهور هذه الفئة في المجتمع بسبب تردي الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي اذ لعبت الحروب والثورات الى ارتفاع الاسعار وتعطيل الاسواق الى انتشار الفوضى وادى الى ظهور هذه الفئة.
٤. يعد الجاحظ والبيهقي من اوائل الذين تصدوا لهذه الفئة، حيث أثبتوا عن وجود اثنان وعشرون فئة من الشحاذين كل فئة لها لبسهم وطريقتهم في الاستجداء.
٥. مارست هذه الفئات شتى انواع التظليل والحيل والمكر من اجل مبتغاهم وكسب المال
٦. عرفوا المكدين بالمحتالين واتخاذهم بعض العاهات سواء كانت حقيقة او حيلة تبين بعض النواقص في اجسادهم مثل اختلاقهم العمى والعرج والخرس والصم والبكم وغيرها.
٧. بين البحث الى ان هذه الفئة لها شيوخ ومريدين يعلمونهم فنون وحيل الكدية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا": المراجع الاولية

_ ابن الاثير، ابو الحسن علي بن محمد(٦٣٠هـ/١٢٣٢)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت ، ١٩٩٧.

_الأحنف العكبري الديوان، تحقيق سلطان بن سعد السلطان، ط١ ، الرياض، ١٤٢٠هـ.

_الازهري، محمد بن احمد (٣٧٠هـ/٩٨٠م) تهذيب اللغة ، تحقيق محمد عوض مرعب،ط١، بيروت، ٢٠٠١.

_الانباري، محمد بن القاسم(٣٢٨هـ/٩٣٩م)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح ضامن، بيروت، ١٩٩٢.

_البصري، القاسم بن علي (٥١٦هـ/١١٢٢م) درة الغواص في اوهام الخواص، تحقيق عرفات مطرجي، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

_البيهقي، ابراهيم بن محمد(٣٢٠هـ/٩٤١م) المحاسن والمساوئ، لا.ط.

_التنوخي، المحسن بن علي(٣٨٤هـ/٩٩٤م)، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، لا.ط، ١٣٩١هـ.

_الثعالبي، محمد بن اسماعيل(٤٢٩هـ/١٠٣٧م) يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، تحقيق مفيد محمد قمحية، ط١، بيروت، ١٩٨٣.

_الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب(٢٥٥هـ/٨٦٨م) الحيوان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢٤.

----- البخلاء، دار ومكتبة الهلال، ط٢ بيروت، ١٤١٩هـ
---- البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
_ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي(٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الامم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط١ ، بيروت، ١٩٩٢.
_الجوبري ، زين الدين عبد الرحيم بن عمر(ت في القرن السادس الهجري)المختار في كشف الاسرار، ١٣٠٢هـ
_ابن حجة الحموي، ابو بكر بن علي(٨٣٧هـ/١٤٣٣م) ثمرات الاوراق، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة.
_الحريري، القاسم بن علي (٥١٦هـ/١١٢٢م) مقامات الحريري، بيروت، ١٨٧٣م.
_ابو حيان التوحيدي، علي بن محمد (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) الامتاع والمؤانسة، اخلاق الوزيرين(اخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد) تحقيق محمد تاويت الطنجي، بيروت ١٩٩٢.
_الخفاجي، احمد بن محمد(ت١٠٦٩هـ/١٦٥٨م)، شرح درة الغواص في اوهام الخواص، تحقيق عبد الحفيظ فرغلي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩٦.
_الخوارزمي، محمد بن احمد(٣٧٨هـ/٩٨٨م) مفاتيح العلوم، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، ط٢، لا.ت.
_الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد(٥٠٢هـ/١١٠٨م) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.
_ الزبيدي، محمد بن محمد (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
_ابن زكريا القزويني، احمد بن فارس(٣٩٥هـ/١٠٠٤م) معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.
_الزمخشري، محمود بن عمرو(٥٣٨هـ/١١٤٣م) اساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
_السبكي، عبدالوهاب بن تقي الدين(٧٧١هـ/١٣٦٩م) معيد النعم ومبيد النقم، ط١، بيروت، ١٩٨٦.
_ابن السكيت، يعقوب بن اسحاق(٢٤٤هـ/٨٥٨م) كتاب الالفاظ، تحقيق فخر الدين قباوة، ط١، بيروت، ١٩٩٨.
_ابن سيده، علي بن اسماعيل (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) المخصص، تحقيق خليل ابراهيم جفال، ط١، بيروت.
_صفي الدين الحلبي، عيسى بن البحتري(ت بعد ٦٢٥هـ/١٢٢٧م) انس المسجون وراحة المحزون، تحقيق محمد اديب الجادر، ط١، بيروت، ١٩٩٧.
_ابن عابدين، محمد امين بن عمر(١٢٥٢هـ/١٨٣٦م) رد المحتار على الدر المختار، دار الفكر ، ط٢، بيروت، ١٩٩٢.
_ابن عبد ربه الاندلسي، احمد بن محمد(٣٢٨هـ/٩٣٩م) العقد الفريد، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ.
_ابن الفراء، محمد بن الحسين(٤٥٨هـ/١٠٦٥م) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط٢، بيروت، ١٩٧٢.
_ابن القطاع الصقلي، علي بن جعفر(٥١٥هـ/١١٢١م) كتاب الافعال، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٣.
_القيرواني، ابراهيم بن علي(٤٥٣هـ/١٠٦١م) زهر الآداب وثمر الالباب، دار الجيل، بيروت، لا.ت.

_ابن قيم الجوزية، محمد بن ابي بكر(٧٥١هـ/١٣٥٠م) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق نايف بن احمد، ط١،مكة المكرمة، ١٤٢٨هـ.

_المقدسي، محمد بن احمد(٣٨٠هـ/٩٩٠م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ط٣، القاهرة، ١٩٩١.

_ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن مكرم(٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ط٣، بيروت، ١٤١٤هـ.

_النفراوي، احمد بن غانم(١١٣٦هـ/١٧٢٣م) الفواكه الدواني على رسالة ابن ابي زيد القيرواني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

_النهرواني، أبو الفرج المعافي بن زكريا بن يحيى ، الجليس الصالح الكافي الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، تحقيق عادل شوشة، مكتبة فياض، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .

_الهمداني، محمد بن عبدالملك(٥٢١هـ/١١٢٧م)، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق البرت يوسف كنعان، ط١، بيروت، ١٩٥٨.

_الوطواط، محمد بن ابراهيم(ت٧١٨هـ/١٣١٨م) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، صححه ابراهيم شس الدين، ط١، بيروت، ٢٠٠٨.

_اليمني، نشوان بن سعيد الحميري(٥٧٣هـ/١١٧٧م) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين بن عبدالله العمري واخرون، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٩٩٩.

ثانيا": المراجع الثانوية

_ الحسين، احمد، ادب الكدية في العصر العباسي دراسة في ادب الشحاذين والمتسولين، ط٢، دمشق، ١٩٩٥.

_ مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، طبعة دار الكتب، ١٤٤٣م.

_اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، ط١، بيروت ،١٩٩٦.

ثالثا": الدوريات:

_ عبير مجاهد أحمد الحسنين، ظاهرة الكدية في نثر الأعراب، مجلة البحث العلمي في الآداب(اللغات وآدابها) يناير، ٢٠٢٠.

رابعا": الرسائل والاطاريح الجامعية

_ بودية، رابح بودية، شعراء الكدية في العصر العباسي في النصف الثاني من القرن الرابع دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير في الادب واللغة العربية، كلية الاداب–جامعة محمد خيضر،الجزائر،٢٠١٥.

_الشمري، سالم بن طعمة بن مطر، بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الامور وسائر الرعية لمحب الدين ابو حامد بن احمد المقدسي الشافعي، رسالة ماجستير كلية الدعوة والاعلام، جامعة محمد بن سعود الاسلامية، الرياض،١٩٩٦.